

الانسان والحيوان والحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

— — — — —

غير قليل ما يمكن أن يقال في الإنسان والحيوان والحرب ، فإن الحرب تفتح المصارب بين الإنسانية والحيوانية على المصراعين بل على شتى المصاريع . وقد تفتح ما بين الإنسان وبين عالم البطولة والملا الأعلى كذلك .

ففي وسعنا أن نزيد مقالاً آخر لأصدقائنا القراء الذين استزادونا من الكتابة في هذا الموضوع ، وما أحفظه بالحقائق والشهادات ، وما أوسع منادح القول فيه .

الإنسان يتهم الحيوان ببدوى الحرب ، ويزعم الحرييون من الأناسي أنها آفة لا معدى عنها ولا دواء لها ، مذ كانت ورائة الطبع الحيواني حيث كان ، مبتدئاً من الجرائم ومنتهياً إلى الحيوان وفريق من بني آدم يرثون الحيوان من هذه النعمة ويحصرون آفة الحرب في أبناء آدم دون سائر الأحياء . أمصفون هم للذرية آدم ؟ أسادقون هم في تبرئة الحيوان ؟ بعض الإنصاف وبعض الصدق لا مرأى .

فهم يسألون : أين هو الحيوان الذي يحشد الأسراب والنطلمان لقتال سرب أو قطع من جنسه ؟ بل أين هو الوحش الذي يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش في الغاب أو في المراء ؟ والحق أنهم في هذا السؤال عرجون ، فالحرب كما نملها في ميادينها البشرية إنما هي خاصة من خواص أبناء آدم : هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض ، ويخرجون على نية القتال حيث لا يقاتل حيوان وهو يعلم أو ينوي أن يقدم على قتال .

فالحرب ولا جدال إنسانية مقصورة على أبناء آدم ، وإن كان المراك قسماً مشتركاً بين جميع الأحياء .

وآخرون من الأناسي الحريين يزعمون أن الحرب لا تزول لأن الطبيعة لا تتبدل ... فما كان في النفس قبل آلاف السنين سيقى في النفس بعد آلاف السنين !!

أصبح ما يزعمون ؟

صحيح بعض الصحة ، لأن رأياً من الآراء لن يكون صحيحاً كل الصحة في جميع الأحوال .

صحيح ، والشاهد من عالم الحيوان الذي يحتجون به في استدانة البنفساء والشكاسة والقتل والقتال .

فأين كلب اليوم من أجداده بين الدئاب وأبناء آوى ووحشى الكلاب ؟

كلب اليوم يحرس الحلان والأطفال ، ويموت في سبيل الود والولاء ...

وكلاب الأمس كانوا أخطر شيء على الحلان والأطفال ، وأجهل خلق بالودة والولاء .

فإذا جاز أن ينتقل الكلب هذا الانتقال وليست له حضارة ولا علوم ولا فلسفة ولا حالة عليا يصير إليها من حالته السفلى ... ألا يجوز أن ينتقل الإنسان مثله أو مرحلة أوسع من مرحلته ، وهو يعبر السافة بين جهل الممج وثقافة المهذبين ؟

والحيوان أنصار كثيرون بين أبناء آدم ، أعجب ما في أمرهم أنهم أرفع الآدميين خلقاً وأبدمهم من الحيوانية شقة وأوفرهم من التقدم نصيباً ، فهم — من بعض الوجوه — أحق بالإنحاء على الحيوان من أولئك الذين يتعقبونه بالإنحاء والتنديد ، وهم أقرب الناس إليه !

أنصار الحيوان هؤلاء يكتبون المعجب هذه الأيام في الدود عنه والرجمة بسيئاته إلى أصحابه من الآدميين . وقلما تخلو كتاباتهم من ظرف وفكاهة ... أما العلم والإدراك فهما مائلان أبداً فيما بطرقون من هذه البحوث .

لاحظ بعض الملاء التفرغين للبحوث النفسية والحيوانية من الإنجليز أن الشجار قد ازداد بين الكلاب بعد نشوب الحرب الحاضرة ، فبلغ عدد الكلاب العضوضة التي عالجتها مصحات الشرطة في لندن خلال شهر أكتوبر الماضي أربعمائة وعشرة ، ولم يتجاوز في الشهر الذي قبله مائة وثمانية وتسعين !

أكثر من الضعف في الشهر التالي لنشوب القتال ... فما تعليل ذلك ؟

يقول مستر جونت Gaunt خبير هذه المصحات : إنها عدوى الإنسان !!

لا يفتنى فيه غناه شيء ولا يلحقه فيه اختراع .

ولم يفتقروا الكلب بمد اختراعهم من أدوات التجسس والاستنشاء ما يرغم أنوف الكلاب ، بل ضاعفوا الحرص عليها وصدرت أوامر الحكومة الروسية بتحريم خروجها من أرضها إلا أن تكون معها شهادة إعفاء تثبت أنها « غير صالحة للخدمة العسكرية » .

والجديد فيها سمها به من مخترعات الحرب الحاضرة أنهم استخدموا الخنازير في بعض الجزر ليحذر الشمال للتنبيه إلى الغارات الجوية ، فإذا هبطت الطائرة المفجرة إلى الأرض على غرة من الرقباء صرخت الخنازير صرخة معلومة فتنبه الحراس إلى مكان الغارة .

كان الخنزير متبعاً بالحب قبل اليوم في غير برهان أما اليوم فيحق لمن يقع في شركه أن يقول مقال النبط أو مقال الاعتراض : ياله من خنزير !

لكن في الحرب برأ من الإنسان بالحيوان وليست كلها شرأ في شر وعدواناً على عدوان

فإذا قلب الناس غداً صفحات الحروب الناصعة فسيجدون بينها صفحة من أنصح صفحاتها في هذه الحرب الحاضرة : تلك هي الصفحة التي أنشئت خصيصاً بالجزر البريطانية لوقاية الحيوانات أثناء الغارات الجوية . فأعدت الحكومة مئات الألوف من الصفائح التي تنقش عليها مواطن تلك الحيوانات وأسماء أصحابها وعنواناتهم للدلالة عليها وردّها إلى مواطنها كما شردت من الذعر إلى مكان بعيد عنها ، وندبت الحكومة ألوفاً من متطوعيها للطواف على البيوت والحقول ابتغاء تسجيل ما فيها من فصائل الحيوانات المختلفة وتزويدها بالعلامات الدالة عليها . وأقمت ملاجئ للأسعاف متفرقة هنا وهناك لإيواء ما يحتاج إلى العلاج والإنقاذ من الحيوانات المصابة أثناء الغارات ، ودبرت الأمر للعناية بها كما دبرت الأمر للعناية بالآدميين

صفحة نامة في التاريخ الحديث ، وحيوان من يحمل أنها مكسب روي للأنسان قبل أن تكون مكسباً جسدياً للحيوان المصاب ، حتى لو كان باعث التدبير فيها مقروناً بياث العظم والإشفاق .

فباس حمود العقاد

فالكلاب ، كما يقول : « سرهفة الحس بما يخالج نفوس أصحابها ، تضيق صدرها إذا ملكت صاحبها الحالة التي نسميها بالنعصبية الحربية . وأنت إذا غضبت يوماً من قراءة أخبار الغارات الجوية خرج كلبك متحفزاً للثوب على أول كلب يراه ، لا يعلم في أي شيء يقاتل ، وليس لديه ما يسميه الساسة : أغراض حرب أو شروط سلام ؛ وحسبه أن صاحبه تائر ، فهو مثله بشراً » ثم يقول الأستاذ جوت : « ويجوز أن يرجع هذا المزاج الكدر في كلاب العاصمة إلى قلة الرياضة لكثرة الوقايات الهوائية وضرورة المكث الطويل في البيوت ، أو لتسفر أصحاب الكلاب إلى الريف ، ولكن السر الأكبر ولا ريب ، إنما هو تلك النزعة القتالية التي تسرى إليها من عندها الآدميين » .

أرايتم إذن ؟

إنه الإنسان الذي يلقح الحيوان بلفاح الحرب والمدوان ، وليس الحيوان بالأستاذ السابق له في هذا الميدان .

والسألة بعد واضحة من غير حاجة إلى هذه الدراسات الحديثة وإن كانت هذه الدراسات مضيعة في النقد بعض المعرفة الجديدة بالطبائع والأخلاق .

فواضح قبل هذه الدراسات أن الإنسان يستعين بالحيوان في حروبه ، ولم يحدث قط أن حيواناً استعان بإنسان في اقتراض ضحاياه واغتيال أعدائه .

ومن قديم الزمن يستعين الإنسان بالحصان والكلب كلما وقع في نزاع بينه وبين أبناء جنسه ، وأقل من ذلك عذراً أنه يستعين بالحمامة وهي رمز السلام والسلامة في تبليغ أوامر الفتك والمهجوم . فقد يمدد المستعين بالحصان والكلب على أغراض الحرب لأنهما كانا عصرراً من المصور الغابرة معدودين في حساب الوحوش ... أما الحمامة فاعذر من يفهمها هذا المقحم الخفيف ، وهي في غير ما قاله المعري عنها :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت في الصالحات كظلم الصقور والباز لا تضرهم لأنهم !

ومضى الناس في الحرب الحاضرة على سنة آبائهم من قديم الزمن ، فلم يفتقروا الحصان بمد كل ما كشفوه من الآلات والركبات . ولا يزال رجال من قادة الحرب يقولون إن له لدوراً